لفتكه بقبائل كعب العربية بما يجعل هذا الانتصار أعظم من يوم ذي قار ، ولا يكتفي هذا الشاعر العربي بهذا الغض من قيمة قومه العرب ، فيعمد إلى إهدار كرامته حين يتمنى أن يُقبل يد هذا الوالي الظالم فيقول :

من لي بتقبيل كف صوب عارضها يزري بواكف صوب العارض الهطل

ويمعن الشاعر عبد الغفار الأخرس بإذلال نفسه حين يتمنى عودة الوالي داود باشا ليُقبل قدميه فيقول :

فألثم أقدام الوزير ألتي لها إلى غاية الغايات ممشى ومهيع

وهذا قدح بمُصداقية تجربته أيضاً . ودليل انحطاط صورة الشاعر وفنه . كما أنها دليل على حالة الانفصام ألتي كانت تسود علاقة الشاعر بمجتمعه وحكامه[1] .

الشعر وموضوعاته :

خلصنا في الصفحات الماضية إلى أن شاعر القرن التاسع عشر قد فقد خصوصيته ألتي ميزته من غيره من الناس أو كاد ، وذلك حين فقد انتماءه للفن ، وإحساسه بمن حوله من الناس ، وصدقه في تجربته . وبذلك فقدّ شعره ووظيفته الإنسانية ، حين تجردت من هذه المضامين .

وقد أسلمته هذه الحالة إلى الاتكاء على الموضوعات التقليدية ألتي ورثها عن الشاعر القديم ، لكنه أساء استخدامها حين هبط بها شكلاً ومضموناً . ولو أستطاع أن يجاري شعرنا العربي القديم كما فعل البارودي لهان الأمر ، لكنه راح يجري وراء شعر فترة الانكسار الحضاري فيُقلدها ويسيء التقليد ، ويجري وراء مضامينها فتعجزه القدرة ، ويحاول أن يصل شأوها فلا يستطيع . وبذلك كان هبوطه بالشعر أشد من شعر فترة الانكسار الحضاري نفسها .

(الفصل الثاني)

جماعة الإحياء

أولاً- الشعراء المحافظون :

بقي الشاعر العربي على عهد الحكم التركي متخلفاً ، شأنه شأن أي نشاط فكري علمي أو اجتماعي .

وإذا كانت مصر قد تمكنت مِن أن تفلت مِن عِقال الحكم المباشر للأتراك عهد محمد علي ، فإن الأدب ظل يدور في دروبه الضيقة ، إذ انصبّت جهود هذا الوا على ما يحقق له أطماعه في السيطرة على مصر .(ومن ثمّ بقي الشعر والفن على صور السالفة في العصور العثمانية ينبع من التكلف ، ويسير في أخاديد الصنعة ، ويعيش في سراديب الضعف والتهالك . وظلّ الشعراء يسلكون نفس الدروب المُلتوية الضيقة ، التي سلكها أسلافهم ومعاصروهم في البلاد العربية من أمثال الشيخ أسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين محمد بن إسماعيل والسيد علي الدرويش . ينشدون شعراً فقدّ روحَهُ العربي الخالص ـ وغدا جسماً يخلو من الحياة . فقد أحالته الصنعة والتكلف ضئيلا بديعته اضطراباً والتواء ، أشبه بالأحاجي والألغاز ، وأصبح المثال الأعلى للشاعر قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصنعة التي تكتم أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه)[1] .

وهذه الصورة ألتي سلكها الشاعر في مصر كانت على ضعفها وتخلفها أفضل من

---

(١) محمود سامي البارودي : علي الحديدي / ٥١.

الصورة التي تركها شعراء الأقطار العربية الأخرى ، فقد وجدنا مجموعة من الشعراء تنهض بالشعر (ولكن في بطء شديد على نحو ما يصور ذلك علي أبو النصر ، وعبد الله فكري وعلي الليثي وعبد الله النديم ومحمود صفوت الساعاتي[1] ومحمد البجاري وعبد الهادي الأبياري وصالح مجدي وغيرهم .

وعلى الرغم من أن هؤلاء هم من جيل البارودي ، إلا أنهم لم يفهموا الشعر إلا على أنه(لم يزد على أنه نديم في المحافل يلقى سامعيه ويُعاشرهم ويضحكهم بالملح والأحاديث .... ذلك لأن ذوق العصر الذي عاش في الظلمة الفكرية والسياسية قيم الشاعرية على أنها اللياقة ، وذرابة اللسان، وهيّ قبلّ كل شيء صِناعة كلام وتنميق ألفاظ ، ومراعة المُساجلة والإقحام)[2].

ومعنى هذا أن الشعر ظل يجري في دروب الضحالة ، حتى إذا ظهر البارودي أنتشله من واقعه المتخلف ونهض به إلى ما يسمو بشأنه ، ووصله بتلك الجذور البعيدة التي حققت له ما كان يصبو إليه من عز ويتمنى من عظمة ويتوق إلى الأبداع في الفن الشعري.

(محمود سامي البارودي)(٣)
١٨٣٨ـ ١٩٠٤م

الحياة والسيرة :

في سنة ١٨٣٨ ولد محمود سامي البارودي من أسرة شركسية . سبق لها أن حكمت مصر لقرن ونصف قرن ، ولهذا النسب أثره في تطلع البارودي نحو المجد السياسي والمجد الأدبي ، لأنه ومنذ أن شب ، شبّ معه شعور بالسعي نحو السيادة، كثيراً ما تردد على لسانه فخراً بآبائه وأجداده من مثل قوله :

من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل داجية نهر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت السمر

وكانت أمه تثير في نفسه هذه المشاعر ، لِتجعل منه رجلاً يُناضل الحياة بهمة خصوصاً بعد أن تعرض لليتم وهو في السابعة من العمر ، فكانت تحدثه عن عظمة وبطولة جده وشهرة خاله (ابراهيم) في ميدان نظم الشعر ، مِمّا حدا به إلى أن يقول شاعراً حين فخر بشاعريته هو فقال :

أنا في الشعر عريق ، ... لم أرثه عن كلالة
كان ابراهيم خالي ... فيه مشهور المقالة

وكان لنسبه الشركسي الذي يَعتد به أثرهما في تأكيده على عنصر الفروسية والشجاعة في شعره وربما شجعه للانضمام إلى الجيش ، بعدّ أن أنتهى من دراسته ليكون مع رفاقه من أبناء الشراكسة الذين سبقوه اليه . ولكن القدر كان يترصده ، ووقف الخديوي سعيد بحماقة ضد معاهد التعليم والجيش ، وحين أغلق معظمها ، حيل بين الفتى وبين طموحه في أن يكون ضابطاً له مهابته في صفوف المقاتلين . ولكن